الشهيد البطل الرفيق انس عمارة (أبو مالك)

في الأول من نيسان لعام ٢٠١٣، غادرنا الرفيق أنس عمارة، الفلسطيني- السوري ذو الـ ٢٣ ربيعاً، شهيداً كما تؤول حال معظم الأبطال والعظماء في التاريخ. وإننا في ائتلاف اليسار السوري، إذ ننعي شهيدنا الغالي، شهيد سوريا وفلسطين ونصير حرية الشعوب في كل مكان، نؤكد على أننا ماضون في الثورة التي انتمى إليها الشهيد منذ يومها الأول، لا بل حتى قبل اندلاعها... وهذا بعضٌ مما قاله رفاق وأصدقاء الشهيد فيه:

أنس لم يستشهد بصاروخ "عشوائي"، لا تبخسوا الشهيد حقه، مثله لا يمكن أن يستشهد بهذه الطريقة "العادية". أنس تعرض لكمين حقير أثناء عودته من الغوطة، واستشهد مع ثمانية أبطال آخرين. أنس ليس عادياً على الاطلاق، هو الاكثر استثنائية بين من عرفتهم خصوصاً أثناء الثورة، وهو الأكثر حذراً وابتعاداً عن التظاهر الفارغ، الذي طبع جلّ الناشطين؛ حذره الشديد وغير العادي لم يمنع موته لأنه بطل ببساطة، لأنه الأصدق في دفاعه عن مبادئه، ولأنه عظيم في فكره وفي ممارسته ومثله لا تمر حياتهم بشكل عادي...

كان أنس عمارة مصراً على أنه ينتمي إلى يسار مختلف. وكان أميناً لمبادئه فانخرط منذ اليوم الأول في الحراك الشبابي في دمشق: من الحجر الأسود إلى القابون والمليحة، حتى داخل المخيم. صنع أنس حراك إنسانياً لمساعدة المحتاجين والنازحين من مناطق سورية عديدة. تحدثت معه في ٢٢ مارس الفائت وقال لي بحسرة "ما عايدت أمي بشكل مناسب يا أحمد.." هذا هو أنس عمارة، شاب كسر كل الجمود الذي فرضته الفصائل والأحزاب والسلطة المستبدة. كان كادراً في الجبهة الشعبية وفضّل الابتعاد عن مواقفها، ليكون أمينا للدم السوري والفلسطيني الذي يسيل..اختار أبو مالك أن يكون إنسانا قبل أي شيء آخر.

كان يتحايل على والده ووالدته وإخوته ليبقى في سورية، لم يكن راغباً بالسفر أبداً؛ ويتكلم عن ذلك بكل حبٍّ لوالديه العجوزين، يتحدث ويتحدث عن أصحابه وأصدقائه ورفاقه، يحلل ويقدم أفكاراً واقتراحات لأعمال أكثر دقة وأكثر فائدة،... هو مصدر ثقة لا يُمارى، لا يكذب، كان كل ما فيه طفل. نعم كان أنس، وهو ابن الثالثة والعشرين طفلاً كبيراً، فالصدق والحلم بغدٍ أجمل، بلا شمولية قاتلة، وبلا ظلم في الحياة، هي بعض من أحلامه. هو ككل شباب سورية وفلسطين، وكل من لديه قضية، هو شاب امتلك أكثر من قضية، واستشهد لأجل كل هذه القضايا: تحرير فلسطين وإسقاط النظام في سورية، ومن أجل سورية ومن أجل فلسطين معاً؛ فطريق تحرير فلسطين يمر عبر الثورات العربية وانتصارها. أنس كان مثالاً للشاب الذي لم تلوثه السياسة أبداً، ولا استهلك نفسه بحكايا اليسار التقليدي، وجد مكانه في الثورة واستغرقته تماماً، ولم تتركه إلا شهيداً.

تذكر يا أنس، بأحد السهرات بمنزل مصطفى، حين كنت تقول لنا ضاحكاً " اذا استشهدت شو رح تعملوا، بأي علم رح تلفوني" وكنا نقول لك مازحين «ستتاجر بك الفصائل وسيتقاتلون على نعشك.. أنت استشهد ما عليك". يا أنس يا رفيقي أنت استشهدت ونحن مبعثرون، اعذرني يا أنس لم استطيع فعل ما وعدتك به مازحا... لم أكن أتخيل بأن المزحة ستتحول إلى كابوس واقعي...

شهيد اليسار الثوري، شهيد مخيم اليرموك، شهيد المليحة والحجر الأسود، شهيد فلسطين في سوريا وشهيد سوريا في فلسطين، الرفيق الذي أعاد للتسمية معناها... أنس عمارة.

العدد 24 - تاريخ 01/04/2013

اليساري

الشعب يريد إسقاط النظام

درعا والثورة..عودٌ على بدء

يحدث الآن في مدينة درعا، أن يحقق المكون العسكري انتصارات متتالية، مقابل اندحار للنظام من مناطق واسعة ونقاط عسكرية إستراتيجية؛ هكذا فنحن أمام تطور «نوعي» في مهد الثورة، يحاكي ذلك التطور الذي حدث في أعقاب خروج مدينة حلب عن سيطرة النظام السوري.

قبل ذلك، كانت الرقة قد سبقت بقية المدن السورية إلى قمة التحرر، وصارت الأكثر تحرراً، تخوض فيها الطبقات الشعبية معركة جديدة وتحدي كبير: إعادة تنظيم المدينة، ومواجهة "الفكر القائد" الجديد، الآتي هذه المرة من القوى الأصولية التي فرض وجودها، كل من إجرام النظام، والتمويل الغير محدود من قبل دول إقليمية، ترتعد خوفاً من ثورة شعبية، هي بجميع المعايير، تهدف إلى دولة نقيض لدول الاستبداد وريوع النفط العربية.

يضاف إلى الحدثين الجلل السابقين، أحداث وتفاصيل متعددة... قطع عسكرية محاصرة في كل مكان، يقف النظام عاجزاً حتى عن إمدادها، المطار الدولي الأكبر في سوريا معطل، وبلن تحت ضربات الثورة، وانتصارات يومية، باتت تفت من عضد النظام، كل هذا التقدم، حدث بأيدي السوريين، وستُعزز قوى الثورة انتصاراتها بالتتالي كما نشهد في كافة المدن، بعيداً من أكاذيب المعارضة حول التدخل الخارجي القادم منذ اليوم الأول، أكاذيب لم تستحي المعارضة من ترديدها مئات وآلاف المرات، ما أضعف قوى الثورة، وشجع المئات من كوادرها على مغادرة البلاد وانتظار وهم النصر القريب بفعل "إنسانية" متوهمة للغرب.

تستمر أكاذيب المعارضة وأوهامها حتى مع إعلان الرئيس الفرنسي أنهم لن يسلحوا الثورة، فهي قد أدمنت الكذب والتبعية، ودعكم من انتقاد الخطيب وغيره للتدخل في شؤون الثورة، فهذه المعارضة هي من جلب أسوء أنواع التدخل، من أجل تسويات في المنطقة، تكون نتيجتها تدمير سورية وتراجع موقعها إقليمياً، وتحكيم إسرائيل بالمنطقة.

هذه ثورة لا يراد لها أن تنتصر، حيث يمنع عنها السلاح، ويمنع مئات الضباط في معسكرات تركيا من العودة لبلادهم، فهؤلاء مفروض عليهم أن يشكلوا مركز قيادة لا يُخضع الثورة ولا يرهنها لمصالح الدول الخارجية، فيما تعاني الثورة بتغييبهم القسري في جانبها العسكري من التشتت والاندفاع غير المُخطط وعدم التنسيق على نطاق الوطن، وبالتالي لو سمح لهم بالعودة، كان ليؤدي إلى ضرب أهم معاقل النظام الأمنية والعسكرية، بدلاً من حرب تحرير المدن، التي هي وفي جانبها الأكبر حرباً مفروضة على الثورة، اشترك في فرضها كل من النظام والمعارضة التابعة لأجندات دولية.

بالرغم من ذلك، سوف تنتصر الثورة، ثورة الطبقات الشعبية وليس ثورة المعارضة السورية وما تمثل من مصالح طبقية وإقليمية ودولية، وستستمر حتى الوصول إلى السلطة، وبناء دولة مدنية ديمقراطية تحقق المصالح الحيوية للطبقات الشعبية ولجميع السوريين.

الدمار والتنمية

الدمار الذي أحدثه النظام في سورية، في المدن والبلدات والقرى، ردا على الثورة الشعبية الساعية نحو إسقاطه، يتطلب من النظام القادم، تنمية وطنية شاملة، تنطلق من تسخير كافة موارد سورية، من كوادر بشرية وشركات كانت ملكية عامة وشركات خاصة، من أجل النهوض والبناء، بعيداً عن مطامح السيطرة للشركات الخليجية أو العالمية، والتي تتلهف للإمعان في نهب سورية؛ وقد بدأت قبل ذلك بإفساد السياسيين من أجل المصالح المستقبلية.

الانتهاء من الدمار، هو جزء من تنمية وطنية عامة، في كافة مجالات الاقتصاد والاجتماع والتعليم والثقافة والسياسة؛ ودون استراتيجيه تنموية ذاتية، ستنعثر سورية والسوريون بطرق ومراحل انتقالية متعددة إلى أن تجد خلاصها فيما أشرنا إليه.

تخريب الثورة عبر "أسلمتها" ومن ثم "تطييفها". هذا ما تفعله السعودية من خلال إرسال "الجهاديين". وما تمارسه تركيا في مواجهة حزب العمال الكردستاني. وما تريده قطر لكي توصل "أصحابها" إلى السلطة. ونقصد هنا الإخوان المسلمين.

كل ذلك يصب في رفض الثورة والسعي لإفشالها وتخريبها، عبر تطييفها بعد أسلمتها. هل نجحوا؟ لا نظن رغم ظهور دور هؤلاء. لكننا لازلنا نعتقد بأن الشعب البسيط والعفوي يريد إسقاط النظام من أجل تغيير واقعه الاقتصادي والاجتماعي وليس من أجل سلطة دينية أو طائفية أو سلفية.

5) يتبيّن الآن أن الوضع الدولي لم يعد هو ذاته كما كان خلال الحرب الباردة. فقد سقطت الثنائية تلك. وتشكل العالم من قوى إمبريالية. تعاني من أزمة عميقة لم تستطع الخروج منها خلال السنوات الخمس السابقة. وربما لن تستطيع الخروج منها. وهي الآن في مرحلة تتغيّر فيها موازين القوى بينها. رغم ضعفها جميعاً. وبات يتشكل نظام "متعدد الأقطاب". وفي الموضوع السوري ظهر التحوّل الكبير لمصلحة روسيا خصوصاً. وظهر أن أميركا التي يجري الاتهام بأنها تمارس مؤامرة ضد "نظام الممانعة" تتوافق مع روسيا التي تحتكر الحل في سورية. وتدعم سيطرتها على سورية.

إن منطق الحرب الباردة قد انتهى. ومسألة الصراع ضد أميركا وحدها كإمبريالية بات جنوناً. لأن روسيا إمبريالية. والصين كذلك. وأن ضعف النمط الرأسمالي بفعل أزمته يدفع إلى ضعف الدول الإمبريالية. ولهذا تجري المؤامرة على الشعب السوري وعلى ثورته وليس على السلطة.

6) بعد كل هذه المحددات التي لا بد من أن تحكم كل موقف ماركسي صحيح. يجب لحظ مدى الدموية التي تحكم السلطة. والتي تعبّر عن سلطة مافيا نهبت البلد طيلة عقود. وتحكمت بالاقتصاد. وباتت سلطة عائلية مافياوية بوليسية من الدرجة الأولى. وتلاحظون مدى التدمير الذي تحدثه. والذي لا يتعلق بوجود "عصابات مسلحة" بل يتعلق بعملية انتقام من الشعب الذي تمرّد على "حكم الآلهة". وقرر أن ينهي سلطة نهبته وأذلته طيلة هذه العقود.

ما يُمارس أبشع من أن يسمح لأي طرف وطني، وليس يساري فقط. بأن يدافع عن سلطة تمارسه. مهما كانت المبررات. ومهما كان الموقف السياسي.

علينا أن نوحد جهودنا من أجل أن يصبح اليسار قوة حقيقية في الثورات، وأن يستطيع قيادتها من أجل الاستيلاء على السلطة وفرض نمط اقتصادي مجتمعي بديل يعبّر عن العمال والفلاحين الفقراء وكل المفقرين.

7) ومن ثم من أجل أن تنطور الثورة وتنتصر يجب أن تلقى الدعم من كل القوى الماركسية والوطنية، كل القوى التي تدافع عن الشعوب. وندعو إلى دعم اليسار لأن ذلك يسهم في تعزيز دوره في الثورة. وفي مواجهة كل الميول الإنحرافية والأصولية والليبرالية التي تتعربش بالثورة.

في الذكرى الثانية للثورة ندعو لموقف موحد لكل اليسار في الوطن العربي. من الثورة السورية. ونطالب بالدعم الحقيقي. كما هو مطلوب منا أن ندافع وندعم كل الثورات العربية. ونقف مع اليسار الذي يقاتل الأصولية والليبراليين. وقوى المجتمع القديم. ذاتها القوى التي نقاتلها ونحن نخوض الثورة قبيل سقوط النظام.

علينا أن نوحد جهودنا من أجل أن يصبح اليسار قوة حقيقية في الثورات. وأن يستطيع قيادتها من أجل الاستيلاء على السلطة وفرض نمط اقتصادي مجتمعي بديل يعبّر عن العمال والفلاحين الفقراء وكل المفقرين.

ندعو لموقف ماركسي صحيح لا يميز بين ثورة وأخرى على ضوء "مسطرة" قديمة. بل ينطلق من الواقع العياني كما تفرض الماركسية. ومن الصراع الطبقي كما حدّد.

في سورية ثورة بطولية. وفيها شباب يفل الحديد. وثقة نفرض أن يحقق هذا الشباب إرادته وليس أي إرادة مفروضة. لهذا نستحق أن يكون اليسار معها لا أن يتوه في مغمغات لاكها طويلاً دون أن يفهم مضامينها.

الثورة السورية منتصرة بالضرورة.

لا يجد اليسار الثوري، الذي ينخرط بالثورات العربية، من حاجة ملحة لتوجيه النقد لمواقف قوى اليسار التقليدية في الوطن العربي، «البكداشية» وأتباعها في سوريا، وامتداداتها في لبنان، فضلاً عن «شلل» وعصابات اليسار والقوموجية في تونس وفلسطين والأردن ودول أخرى. إذ إن مواقفها لم تقتصر على العداء للثورة السورية، بل ذهبت بعيداً باتجاه تمجيد النظام السوري ورئيسه. في سقوط أخلاقي مدوٍ ومفضوح. وتناقض عجيب جعلها على عداء مستحكم مع الشعوب الثائرة التي لطالما تغنت بها وبآلامها وانتظرت ثوراتها.

غير أن رهطاً آخرَ من اليسار هو ما يستحق النقد، يساراً لطالما ادعى تمايزاً ما عن اليسار القديم، وأسال من الحبر الكثير، في نقد "نظري" له ولممارساته في العقود الماضية؛ لكن ما أن أزفت ساعة الحقيقة، ودقت الثورة الأبواب حتى أشاح بوجهه عنها، وانطلق يخترع تبريرات واهية للوقوف ضدها، يطعن بها ويفتش عن أي خطأ ليرفعها إلى مستوى الخيانة، وراح ينتحب كأرملة أو عاهرة وهو يردد أطروحته التبريرية الشهيرة: "الثورة في الوطن العربي ماتت، سرقتها الدول الامبريالية ودول النفط العربية، تباً للجماهير المخدوعة التي سلمت الوطن العربي للإخوان المسلمين، ولفئاتٍ لا تختلف "طبقياً" عن النظم الساقطة».

ما معنى أن يقال بأن الثورة في المنطقة تمت سرقتها وإعطاء الحكم للإخوان؟ يعني أننا بصدد نخب متشائمة وجبانة غير مستعدة للنضال وتريد ثورة على هواها، وإلا ستقوم بـ"حردة" أطفال، ولن تعطيها براءة الثورة؛ وبالنسبة لهؤلاء، لا يكون هنالك ثورة "غير مسروقة" إلا إذا صعدت قوى يسارية للحكم!!؛ أما إذا اختار الشعب الإخوان المسلمين لسبب أو لآخر فستكون نهاية الكون)ويتصل استلام الإخوان في أحد أسبابه بالروح الانهزامية لهذه النخب التي استقالت من العمل في الشأن العام واتجهت للتنظير).

لا ريب في أن الإخوان المسلمين لا يختلفون في موقعهم الطبقي، وبالتالي في سياساتهم، عن النظم الساقطة؛ لكن الثورة أنجزت جزءاً من المهمات الديمقراطية، وهو نيل شيء من الحرية، وانفتاحُ الطبقات الشعبية على العمل الجاد نحو مزيد من التنظيم؛ ولنا في ذلك أن نعود إلى تاريخ الثورة الروسية، إذ جاءت ثورة فبراير عام *1917* في روسيا بأمثال من جاءوا في تونس ومصر؛ مع ذلك صنفها لينين، الذي شارك حزبُه بجرأة وقوة فيها، بين أعظم الثورات. لا بل حتى أن تمرّد عام *1905*، الذي فشل بالإطاحة بالقيصرية، لم يبخل عليه لينين بلقب الثورة؛ فليس كل ثورة يجب أن تنجح وتحقق كل ما نريد لنقول أنها ثورة.

بعد ثورة فبراير في روسيا (الثورة الأولى)، لم يغرق لينين ورفاقه في مستنقع التشاؤم ولوم الثورة والطبقات الشعبية "المخدوعة" التي أتت بكرنسكي والكاديت للحكم، وهؤلاء حافظوا على ذات السياسات السابقة، كما لم يلق باللوم على التدخلات الإمبريالية التي ساعدت الثورة بالتخلص من النظام القيصري، بل تعامل مع النتائج الجديدة للثورة بعقل بارد وبإرادة مندفعة للعمل؛ اعتبرها نتيجة أولية قابلة للتغير والتطور، بقدر ما ينجح حزبه في دفع الطبقات الشعبية الساخطة إلى الأمام؛ والحقيقة أن التنظيم القوي للحزب البلشفي وعبقرية لينين الاستثنائية هي ما دفعته للسلطة بعد ثمانية أشهر فقط من سقوط النظام، وكان يمكن جداً لدى قراءة تاريخ الثورة البلشفية أن لا ينجز البلاشفةُ الثورةَ الثانية في أكتوبر، لو لم يخرج لينين من مخبئه، ويدفعَ حزبَه والسوفيتات دفعا إليها؛ هكذا فقد كان ممكناً جداً أن تتمكن الفئات البرجوازية الجديدة من الاستمرار بالسلطة، وتثبّتَ دعائمَ حكمها؛ ويحتاج الأمر لسنوات من العمل والتحريض مع الطبقات الشعبية.

صفوة القول، أن اليسار الذي يستحق اسمه، مدعو للتفاؤل والتنظيم والعمل؛ فالطبقات الشعبية، التي اندفعت بهذه الجرأة الأسطورية، قادرةٌ على الاستمرار حتى استلام السلطة وإحداث التغيير الجذري؛ وإن وُجِد من يستحق المذمة والعار فهي قوى اليسار التي تخاذلت في الماضي ودعمت نظماً غير شرعية، وتخاذلت اليوم بخيانة الجماهير وإلقاء اللوم عليها؛ وتبقى حقيقةٌ دامغةٌ أن الماركسيين في بلادنا أثبتوا ويثبتون دوماً، أن تشاؤمهم وجبنهم عن مواكبة الجماهير هو أسوأ ما في الحركة الماركسية في الوطن العربي.

سورية المستقبل والمنظمات غير الحكومية

بناء الدولة المدنية الحديثة. بعد سقوط النظام هي هاجس ينتاب كل سوري. وكل مثقف وناشط سياسي: فنتائج الحرب الهمجية التي يشنها النظام على الشعب كارثية على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والمعيشي. مما أدى لانتشار الجريمة والسرقة والتطرف والانتقام ومختلف أشكال التفكك الاجتماعي. خاصة في البيئات الأكثر معاناة. في هذا الوضع المزري تنشط الكثير من المؤسسات غير الحكومية. وورشات العمل. والمنظمات الحقوقية.... بعضها محلي وبعضها فرع لتنظيم عالمي؛ وهي إلى جانب ما تقوم به من توثيق الانتهاكات والإحصاءات والدراسات. فإنها في معظمها تطرح رؤىً لكيفية بناء المجتمع المدني.

فما أهمية وجدّية تلك الرؤى؟

معظم هذه المؤسسات ليبرالية التوجه. فهي ترى أن المشكلة هي في "الفرد". وبالتالي تعتمد في رؤاها على تأهيله وتدريبه ليكون فعالاً ومبدعاً "كفرد" في المشاركة في الدولة الجديدة. عن طريق ورشات عمل يشرف عليها نخب مختصة منتقاة(غير منتخبة). تعلّم المواطن كيفية تقبل الآخر. وامتلاك ثقافة الحوار. وحض على الالتزام بالأخلاق العامة؛ إضافة إلى أنها تركز جل اهتمامها على الاعتماد على منظمات حقوق الإنسان العالمية في الدول المتقدمة. من أجل حل مشكلاتنا المحلية.

هناك ثلاث إشكاليات في مثل هذه الطروحات: الأولى. أنها لا تطرح الحلول استناداً إلى معالجة الأسباب التي تؤدي إلى التفكك الاجتماعي: فانتشار اللصوصية. وزواج القاصرات. وتجارة الجنس والأعضاء البشرية والمخدرات. وكذلك ارتفاع حدة العنصرية والعصبيات المذهبية.... كلها سببها الجوهري هو اشتداد الفقر في المجتمع؛ ومن المجحف لوم الضحايا على عدم التزامهم الأخلاق العامة. ومعالجة المشكلة بحضهم على التحلي بالأخلاق العامة. بدلاً من التركيز على معالجة أسباب انتشار تلك الظواهر. والإشكالية الثانية: أنها تفصل كلياً مركز السياسات المعارضة. والمسمى "المجتمع المدني". عن الدولة والنخب التي ستحكم؛ وبالتالي فهي لا تطرح كيفية تمكين المجتمع المدني من المشاركة في الحكم. لأنها نخبوية (يشرف عليها نخب وهم من يحدد احتياجات المجتمع). أي هي غير ديمقراطية لأنها غير منتخبة. وبالتالي لا تعتمد على قوة الشعب وقدرته على حشد طاقاته. ولا تبحث عن كيفية تمكينه المشاركة في القرارات التي تحقق مطالبه. وتوفر له الظروف الملائمة للإبداع والعمل؛ وبالتالي مؤسسات العمل الجماعي هذه ضعيفة جداً؛ فهي تقوم بدور إحصائي جيد للمشكلات الاجتماعية المنتشرة. ولكنها غير فعالة في معالجتها. وثالثاً. أن معظم تلك الرؤى ترى أن عدم مساندة المجتمع الدولي للشعب السوري ودعمه في حربه المريرة ضد النظام. هو بسبب النظرة الإستشراقية التي يرى بها الغرب المتقدم شعوب العالم الثالث. وبالتالي علينا أن نعمل بجهد لتغيير تلك النظرة من أجل الحصول على الدعم والمساندة. من خلال توثيق الانتهاكات ورفع التقارير الحقوقية إلى المنظمات العالمية: هذه النظرة تهمل حقيقة الهيمنة الإمبريالية لتلك الدول المتقدمة على العالم. والتي هدفها الأساسي نهب ثروات العالم. وإبقاء شعوبه ضعيفة وعاجزة عن تحصيل حقوقها؛ فالنخب الحاكمة في الغرب الإمبريالي تسيطر على الوسائل الثقافية في مجتمعاتها ومجتمعات العالم التابع لها (الإعلام والجامعات والفكر...). وتروج عبرها لتلك النظرة الدونية عن تخلف شعوب العالم الثالث وتفككها؛ وتبرر سلوكياتها تجاه الانتهاكات الحقوقية التي تقوم بها تلك الدول بنفسها. أو التي تقوم بها الحكومات الديكتاتورية لقمع تحركات الشعوب. وبذلك يكون للدول الإمبريالية. التي تمول نخبها الحاكمة منظمات حقوق الإنسان. يدٌ خفية في العنف الممارس ضد الشعوب المطالبة بحقوقها.

يمكن الاستفادة من المهارات التي يتم التدرب عليها عبر تلك المؤسسات. ومن الحقوق التي تنادي بها. وحصول المفقّرين على حق تشكيل النقابات المهنية ومجالس الإدارة المحلية وغيرها من المؤسسات الديمقراطية المنتخبة؛ فالمؤسسات الديمقراطية قوية. لأنها تعبر عن المجتمع بكل شرائحه. فهي قادرة على حشد الجماهير وتنظيم التظاهرات الشعبية والإضرابات. وهي القادرة على بلورة أهداف ومطالب ممثليها. وعبرها يمكن إشراك الشعب في قرارات الدولة بما يحقق مطالبه.

تكمن المشكلة في المنظمات غير الحكومية حين تخطف الرأي العام بخطابها الحقوقي البراق. وجّذب النشطاء السياسيين للعمل في ظلها. خاصة أن معظمها يتلقى الدعم المهاراتي والمالي. وهي بالتالي تبدد قدرة هؤلاء النشطاء على العمل على حشد طاقات المجتمع المدني وتنظيمه في نقابات ومؤسسات ديمقراطية منتخبة وقوية وفاعلة في الحياة السياسية؛ وذلك عبر إعطائهم دور الوصاية على المجتمع. وتفريق جهودهم. وتوجيههم للعمل في منظمات ضعيفة (وخيرية)؛ وبذلك تصبح منظمات المجتمع المدني. المعارضة لسياسات النهب والتهميش والإفقاء هي أكثر من يحمي تلك السياسات.

تصوّر ائتلاف اليسار السوري

تشكل ائتلاف اليسار السوري مع بدء الثورة من كادرات وشباب ماركسي انخرط في الثورة. بعضه كان عضواً في أحزاب لم تقف مع الثورة. وبعضه لم يمتلك تجربة سياسية من قبل. لكنه تطور خلال الثورة. وبات له نشاط متعدد. كما بات له شهداء ومعتقلون.

كان الهدف من تشكيل الائتلاف هو تنظيم دور الماركسيين في الثورة. وزيادة فاعليتهم وتأثيرهم. ربما لم نحقق الكثير. لكننا استطعنا أن نتوّجد وسط الصراع. وأن نظل نقاتل مع الشعب من أجل إسقاط النظام.

وإذا كان اليسار بشكل عام قد أظهر ارتباكاً في الموقف من الثورة السورية إلى حدّ رفض بعض الاتجاهات اعتبار أنها ثورة أصلاً رغم كل هذه المشاركة الشعبية فيها. وكل هذه البطولة التي يظهرها الشباب الثوري. الشباب البسيط والنقي. الذي لم يعرف السياسة قبلاً نتيجة استبدادية طويلة كانت هي سمة السلطة. فإن هذا كان يربك اليسار السوري المشارك في الثورة بدل أن يكون اليسار عنصر دعم وإسناد.

بالتالي ما يمكن أن نقوله بوضوح. ومن أجل موقف ماركسي واضح من الثورة. هو التالي:

1) أولاً إننا نتحدث عن ثورة وليس عن مؤامرة. ثورة عمادها المفقرون. حيث البطالة عالية والأجر لا يفي بتحقيق أي مقدرة على العيش. وحيث الاستبداد فرض تدمير السياسة والثقافة. وتحكّم في مؤسسات المجتمع المدنية. ومنع كل أشكال التعبير عن المطالب. وإذا بدأت الثورة بشعارات عامة. قد يعتبرها البعض ليبرالية فإن عمق الثورة هو هذا الوضع المزري الذي يعيشه الشعب. والذي جعله بكل هذه البطولة وهذا الاستشراس ينهض لتغيير السلطة.

إذن يجب أن نرى بأن الظرف الذي فرض الثورة هو ذاته الظرف الذي فجّر كل الثورات العربية. بغض النظر عن توضعات النظم على الصعيد الدولي. فالثورة هي نتاج تفجّر الصراع الطبقي الداخلي بالتحديد.

2) إن المعارضة لم تكن تتوقع الثورة. ولقد عملت على ركوبها والاستفادة منها لتحقيق مصالحها هي. ولهذا فإن كل سياسات هذه المعارضة

كان الهدف من تشكيل الائتلاف هو تنظيم دور الماركسيين في الثورة، وزيادة فاعليتهم وتأثيرهم. ربما لم نحقق الكثير، لكننا استطعنا أن نوجَد وسط الصراع، وأن نظل نقاتل مع الشعب من أجل إسقاط النظام.

لا يجب أن توضع في سياق التعبير عن الثورة. بل هي تعبير عن مصالح ضيقة لفئات ليبرالية وأصولية. أو أوهام فئات وسطى فاجأتها الثورة فارتعبت وظلت تطرح سياسات أدنى من مطالب الشعب. ولا ترتقي لأن تعبّر عن الثورة.

بالتالي يجب أن يكون التمييز واضحاً بين الشعب البسيط والعفوي. المتدين أو الذي لا يهتم بهذا الأمر. وبين المعارضة التي كانت عبئاً على الثورة. وأضرت كثيراً في السياسات التي اتبعتها.

3) حين تكون الثورة عفوية يمكن لأي كان أن يدعي مشاركته. وأن يعمل على تحويلها إلى سياق يخدم مصالحه. لهذا وجدنا أن القوى الأصولية (الإخوان المسلمين خصوصاً) تسعى بقوة علاقاتها الإقليمية والدولية وقدراتها المالية لكي تصبح هي القوة المعبّرة عن الثورة. سواء عبر تحالف كانت ممسكة بكل مفاصله. أو مباشرة عبر فصل المجموعات المسلحة الخاصة بها. ومحاولة شراء المناضلين باستغلال الحاجة إلى المال والسلاح.

كما وجدنا كيف جرى تأسيس تنظيم سياسي عسكري. الطائفية هي كل ثقافته. والقرون الوسطى هي المخزون الذي يعرفه. ونقصد جبهة النصرة. من أجل تسعير الصراع الطائفي بعد أن فشلت كل محاولات السلطة لتحقيق ذلك.

وهنا نجد أننا كيسار نخوض صراعاً واضحاً ضد كل هذه الميول والتوضعات. ونعتبر أن مواجهة السلطة لا تعني غض النظر عن هذا النتوء الذي يشكل خطراً على الثورة.

4) بالتالي نجد أن الثورة السورية تواجه ليس السلطة فقط. بل تواجه الخوف الهائل الذي نتج عن بدء الثورات عند السعودية ودول الخليج وكل النظم الأخرى. الذي دفعها إلى دعم السلطة أو

المعارضة السورية: انعكاس للخارج

قد يكون أكثر ما شد انتباه السوريين إلى حادثة تسلم المعارضة، مقعد سوريا في جامعة الدول العربية، هو شكل الحدث أكثر من مضمونه. إذ قابل السوريون، قرار الجامعة بلامبالاة واضحة، وبمشاعر باهتة، استمرت هذه المشاعر حتى عقد الجلسة الافتتاحية للقمة العربية، التي حملت صورة شديدة التعبير والتكثيف، ظهر فيها علم الثورة السورية ذو النجمات الثلاث إلى جانب عبارة " الجمهورية العربية السورية". لم يكن بسيطاً ولا عابراً هذا المشهد. على العكس من ذلك، كان يفيض فرحاً وأملاً وآلاماً. إذ كان ثمن وصول " علم الثورة" إلى هنا، عامان من النضال والتضحيات، مئة ألف شهيد، ومئات آلاف الجرحى والمعتقلين والأيتام والثكالى، هو ثمن باهظ جداً؛ ولم تكن صورة العلَم سوى تكثيفاً لهذا الثمن، وعلى هذا استحق الفرح والاحترام.

وبعيداً من العواطف، تبقى الحقيقة أن هذا الحدث " الكبير"، كما دعاه قادة الائتلاف، ليس كبيراً على الإطلاق، خصوصاً وأنه لن يؤثر في سير الأمور على الأرض؛ فالثورة غارقة في تضحياتها ومشاكلها وأزماتها، بعيداً جداً عن الدوحة ومقرراتها. هذا فضلاً عن الشكوك العديدة التي تكتنف نزاهة الائتلاف وشرعيته، مهما ادعى من الشرعية. ومهما أسبغت عليه الدول التي أطلقته من صفات. وفتحت له من سفارات؛ فلقد بات واضحاً أن القوى المتحكمة به، تقضي جلّ وقتها، و" نضالها" في التآمر على القوى الأخرى، والتخطيط للوصول إلى السلطة، إنها ولفرط انتهازيتها اندفعت للاستحواذ على جلد الدب قبل اصطياده/.

وليس بعيداً عن انقسامات المعارضة السورية، نشهد اشتداد حدة الصراع الدولي والإقليمي على سوريا، إذ يبدو أن انقسامات المعارضة باتت، صورة مبتذلة لانقسام أكبر، خصوصاً أن التقارب الأمريكي الروسي قد خلط الأوراق وعقّد المشهد؛ فقبل ذلك كان من السهل أن نضع روسيا وإيران في معسكر تمثله في المعارضة؛ هيئة التنسيق وعدد من الأحزاب التابعة للنظام، في مقابل معسكر آخر ضم جميع الأعداء المفترضين للنظام (أمريكا، أوروبا، تركيا، قطر، السعودية..)، ويعكس صورته في المعارضة المجلس الوطني السوري؛ غير أن تقارباً أمريكيا روسياً ولد ضعيفاً، وراح يكبر ويتعزز حتى صار شبه اتفاق. انعكس بدوره على المعارضة السورية المرنة جداً اتجاه الخارج وتغيراته، بتأسيس الائتلاف السوري وتسليم الشيخ معاذ الخطيب مقاليد رئاسته، لينحو الخطيب بعد ذلك وبسرعة باتجاه الاتفاق الروسي الأمريكي، حتى غدا الممثل " الشرعي" له في صفوف المعارضة بطرحه الحوار والحل السياسي؛ ويتمتع الخطيب بشعبية نسبية وطارئة لدى السوريين الموغلين كراهية، وبغضاً للمجلس الوطني، والتائقين إلى بديل سياسي يقارب تطلعاتهم، بدا لهم أنه الخطيب، فضلاً عن أسلوبه، ومنطقه الشعبي في الحديث، الذي يبعث شعوراً عاماً بارتفاع درجات المسؤولية لديه عن أقرانه في المعارضة المنعدمة المسؤولية؛ ويخطئ البعض إذ يظن أن الخطيب يكتسب أهميته في الائتلاف وما يبدو بأنه " سطوة" من شعبيته تلك، إذ إن القوى المتحكمة بالائتلاف لا تقيم وزناً لإرادة الشعب بقدر ما ترضخ لإرادة الخارج. هكذا نعود إلى الاتفاق الروسي الأمريكي الذي أتى بالخطيب، والحقيقة التي قد تكون مُرة وقاسية على البعض، أن الخطيب يستمد وزنه وقوته من هذا العامل بالتحديد.

لهذا يخطئ أيضاً من يظن أن الخطيب رجل بسيط بعيد عن السياسة، إذ لا يمكن لرجل بسيط أن يحتل منصب رئاسة ائتلاف غيلان المعارضة السورية، ولا أن يستقيل اعتراضاً على مصادرة القرار والتدخل القطري، ومن ثم ليعود عن قراره، إلا إذا كان مدعوماً بتدخل آخر (أمريكي أوروبي)؛ هذا الرجل يؤدي دوراً ما، هو مؤثر بكل تأكيد في الصراع الدولي الإقليمي على حصاد نتائج الثورة؛ ولا يبدو بأن الاتفاق الأمريكي الروسي قد أعجب القطريين والأتراك، وبالتالي ممثليهم في المعارضة، أي جماعة المجلس الوطني؛ ودعكم من انتفاض الخطيب على تدخل بعض الدول بقرار الائتلاف ومنها دولة قطر، فهو على الأرجح لصالح تدخل دول أخرى وفرض حلها؛ الأكيد أن جميع أطراف المعارضة المكرّسة باتت تابعة وممثلة لمصالح دول. أكثر منها ممثلة للثورة والشعب. وأن الهوة بين مطامحها وبين الثورة باتت كبيرة وعميقة كما لم تكن يوماً.

سهام تتلكأ

كان بحثها طفيلة الوقت، خاصة وأنها خرجت من الاعتقال والسجن بتجربة مرة، بأن عليها أن تسافر لإكمال دراستها، ويقدم لها أسبابا حقيقية لذلك: فالجامعات تريد باحثين وأساتذة جامعيين حقيقيين بدلاً عن أساتذة السلطة وأجهزة الأمن، ولم تعد قادرة على تقديم شيء يذكر، فالمناطق الواقعة تحت السلطة مقطّعة تماماً، وفي المناطق المحررة هناك فائض بشري، وبالتالي مكانكِ الوحيد هو الجامعة وإكمال الاختصاص...

ولكنها كانت تعرف أنه يكذب، فهو أيضاً لا يقدم شيئا يذكر سوى مقالاته ونصوصه، والتي بمقدوره أن يكتبها خارج البلاد، ومن أي مكان في العالم، فلماذا لا يخرج هو كذلك؟

سهام تعلم أن صديقها، ينتظر رؤية الناس لحظة سقوط النظام، وهي أيضاً تنتظر مثله تلك اللحظة بالتحديد، وبالتالي ستبقى سهام تتلكأ.

كيف يبقى أخي أخي؟

لم تستطع إخفاء قلقها أبداً: كيف أمنع أخي من التورط بالقتل؟

كان هاجسها أن لا تتلوث يداه بالدماء، فهو بحاجة ماسة لكل قرش! والنظام لن يضيّع أية طريقة من أجل التقاط هؤلاء المحرومين والمفقرين على مدى عقود لدفعهم كوقود في معركته ضد الشعب، والذين تتكدس في عقولهم الأوهام عن الآخر؛ فهو طائفي وقاتل ولن يردعه شيء عن ممارسة كل أنواع الذل حالما يسقط النظام؛ هذه الأوهام هي ما كرسها النظام ليفرق بين السوريين على أسس طائفية وعرقية، وكذلك فعلت المعارضة ولا سيما الطائفية منها الشيء نفسه.

راما تعلم كل ذلك، وتعلم أن أخاها ككل هؤلاء المفقرين، والذين لم يشعروا يوماً، وخاصة منذ أن بدأت الثورة، بالراحة، فالنظام بخيفه والمعارضة تلك ترعبه، وبالتالي ما الحل؟

راما وجدت الحل، بأن تخصص نصف راتبها لأخيها، وبذلك تقيه من الفقر والغلاء والكذب والطائفية، ولن يضطر لقتل أخوته في الحي الآخر؟!

بالعربي الفصيح

عجز بائعي الأوهام

لقد سحق النظام بشموليته أية نويات لعقلية سياسية تثق بنفسها، لأربعة عقود متتالية، فتكرّست معارضة هامشية، بالرغم من فانورة السجون والتضييق العالية، والتي دفعت ثمنها، وعلى امتداد تلك العقود.

تلك الهامشية، أكسبتها الشعور العالي بالعجز عن تغيير النظام، وعدم الثقة بالشعب الذي لم يناصرها حينما كانت تعارضه بقوة وصلابة، المشكلة أن انعدام الثقة ذاك، صار عقلية متكاملة لديها، ووفقها تبنى السياسات والبرامج وتبنى الأفكار.

ظهرت تلك أكثر ما ظهرت لدى المعارضة المكرسة، التي هي بقايا قوى سياسية متقادمة وغريبة عن عصر الشعوب الحالي؛ ولكنها وحالما بدأت الثورة ضد النظام، توقعت في إطار المحور الإقليمي والإمبريالي ضد النظام، متوهمة أن ذلك المحور معني بقضيتها المركزية، ألا وهي استبدال نفسها بالسلطة الحالية، وتسخير الثورة من أجل هذه الغاية بالتحديد.

يقع في موقع العقل لديها، جربنا كل من العراق وليبيا، حيث دعمت الدول الامبريالية والإقليمية مسعى تلك المعارضات للوصول إلى السلطة، ووصلت وبدأت النهب، وهي ما تسعى إليه بكل بساطة ووضوح، وبالتالي لا تختلف المعارضة المكرسة عن تلك المعارضات في شيء فهي عولمية الهوى، ومنفصلة عن الشعب، وتركز بصرها على مقاعد السلطة القادمة.

فتصدرت الإعلام، وشكلت مؤثراتها وهيئاتها ونسجت علاقاتها التبعية مع الدول الخارجية و لا تزال تلهث خلف التمثيل السياسي الواحد الأوحد! وطالبت ومنذ اللحظة الأولى بالتدخل العسكري، وبقيت ومنذ أن تشكلت تطالب به، متجاهلة أن تلك الدول، لا تبتغي أبداً ذلك التدخل، وبذلك كانت تبيع الأوهام للشعب الأعزل، الذي أذاقه النظام كل أنواع الهوان، بعد كل أشكال الإفقار والتهميش والتضييق والشمولية، فكان يصدقها! حيث أن الجالس على كرسي المشنقة ينتظر الرحمة فقط؛ حالة الشعب تلك أخذت أشكالاً لا متناهية من القتل والتعذيب ودمار المنازل والتهجير ومختلف صنوف الحرمان والعنف، وبالتالي كان يتلهف لتدخل إلهي أو تدخل خارجي.

تلك المعارضة لعبت، نعم لعبت على مشاعر الناس، لكسب ثقتها، ولكنها باعتها أوهاماً عصية على التحقق، وكارثية في نتائجها، وقد أعاقت فكرة التدخل وكذلك التسليح تطوّر الثورة ذاتها، فلم تقدم رؤىً عن مختلف الصعد، فالبيست رؤية الثورة عن شكل الدولة القادم، والعلاقات بين الطوائف وعن حالة الاقتصاد والتنمية وكيفية الانتقال، غياب التصور عن تلك القضايا وتأخر انتصار الثورة، يتحمل مسؤوليته بعد النظام، عجز بائعي الأوهام بالتحديد.